الإيمان والعقل

هانس كينغ *

يواجه الإسلام كما تواجه المسيحية واقعاً ما عاد يمكن تجاهُلُه؛ وهو أنه في الأزمنة الحديثة؛ فإنّ الإنسان قد تعلّم على استخدام عقله في مجالاتٍ متّسعة. بيد أنَّ السؤال الذي يطرح نفسه: هل الإنسان يستطيع أن يعيش بالعقل وحده؟ هنا وجب علينا أن نُفرِّق. فقد كان حقاً وضرورةً تاريخية مبدئياً، بالنسبة للإنسان المحوط بالشكوك، أن يتعلَّم إحسانَ استخدام العقل. وذلك لكي يتمكن مستنيراً بالعلم، وبدون أحكامٍ مسبقة، قوانين الطبيعة، وذاتَه، والظروف الاجتماعية بكلّ جوانبها.

بيد أنه رغم التسويغ المبدئي، والضرورة التاريخية، للعقل المستقلّ والمعرفةِ العلمية لتحسين حياةِ الإنسان والإفادة من التنوير - فإنّ العقلانية لا ينبغي اعتبارها قيمةً مطلقة. فبالإضافة إلى العقل، يكون علينا أن نأخذ بالحسْبان الإرادة والمشاعر والتصورات والمزاج والعواطف والأحاسيس، والتي لا يمكن إلغاؤها لصالح العقل. فهناك إلى جانب التفكير العقلاني المنهجي؛ الحدْسُ والفهم الشامل المتصل بالإحساس والمشاعر. لقد حاولت العلوم الطبيعية أن تتقدم في المعرفة إلى حدود الحتمية الرياضية؛ وهذا أمرٌ جيد. لكنّ السؤال الذي يبقى مسوَّغاً هو: أليست هناك حدودٌ للعلم الطبيعي؟ هنا أيضاً يكون علينا أن نميِّز!.

فالبحث الدقيق من الفيزياء الذرية وإلى الفيزياء الفلكية، ومن المايكرو بيولوجي وإلى علم الجينات والطب؛ كلّ ذلك يمكن متابعته إلى أقصى حدود التأكد. فالعلم الرياضي له مسوِّغاتُهُ الكاملة، واستقلاليته، وقوانينه الذاتية. ولا ينبغي لمؤمنٍ أن يجادل في الحقائق العلمية استناداً للذات الإلهية والرسالات والكتب المقدسة (مثل الإنجيل والقرآن). لكن إذا كانت أسئلة العلم الطبيعي ينبغي أن تُعالَج بمناهجها وطرائقها الخاصّة؛ فإن الأسئلة المتصلة بالنفس الإنسانية وبالمجتمع، ومشكلات القانون والسياسات، والتاريخ، والجماليات، والأخلاق، والدين - ينبغي أيضاً أن يخضع بحثُها للطرق والمناهج الملائمة والتي تتفقُ وموضوعاتها وأساليبها الخاصة بها.

ثم إنه أيّاً يكن اتبُّاعنا للمناهج التجريبية، والرياضيات العقلية في قضايا العلوم البحتة والتطبيقية؛ يبقى أنه ليس من حقنا أن نتجاهل أصول الأشياء وأصول القوانين. لا ينبغي تجاهُل الطبيعة الافتراضية لتلك القوانين العلمية، كما أنّ نتائجها ينبغي ألا- أن تعُتبر مطلقة. وهكذا فبقدر ما نتطلع إلى إمكانيات العلم الطبيعي؛ فإنّ حدودُهُ ينبغي ألا تُرى أيضاً. وبدون التقليل من شأن الرياضيات والعلوم الطبيعية، ينبغي أن نُلاحظ أنه لا يدخل

بين قدُرات العلمين الطبيعي والرياضي، إصدار أحكامٍ على القضايا اللاهوتية والميتافيزيقية، باعتبارها تعبّر عن موضوعات زائفة؛ كما تفعل مدرسة الوضعية المنطقية الفلسفية.

لقد صارت العلوم الطبيعية بالفعل أصل التقدم الحديث في مسائل التكنولوجيا والصناعة؛ كما في قضايا الرؤية العصرية للعالم، والثقافة والقضايا الحضارية بشكلٍ شامل. بيد أنّ العلومَ الطبيعية تبقى الأساس للرؤية العالمية العصرية والحضارة والثقافة؛ إذا لم تعتبر نفسَها الأساس الشامل الوحيد لكل الحقول والميادين والسياقات. وهذا يصدُقُ أيضاً على العلوم الإنسانية والاجتماعية الأُخرى، والفلسفة؛ بل واللاهوت أيضاً. فكلُّ علمٍ يعتبر نفسه يقينياً ومعبِّرا عن الحقيقة المطلقة (وإن في مجالٍ محدَّد)، يضعُ نفسه موضع الشكوك والتأمُّل. واليوم يعترف أكثر علماء الطبيعيات أنهم لا يملكون حقائق مطلقة. فهم مستعدون لمراجعة مواقف سبق أن تبنّوها؛ بل إنهم مستعِدون في أحيانٍ كثيرةٍ للتراجُع عنها. بيد أنّ المؤمنين أيضاً والذين يطمحون للوصول إلى الحقيقة المطلقة؛ لا يملكون أن يقولوا إنهم توصلوا لذلك فعلاً. إنهم يملكون السعي والمجاهدة والمحاولة ثم المحاولة مرة أخرى، والإحساس بالاقتراب أكثر، والإفادة من التجربة والخطأ، والاستعداد لمراجعة موقفهم. وفي الفلسفة واللاهوت بالذات، ينبغي أن تكون العلمية البحثية والتساؤلية ممكنة، ومن الانتقاد، وإلى الانتقاد المضادّ فإلى التحسُّن وإمكانياته. ونحن نعلم أنّ الافتراق بين الدين والعلم الطبيعي كان كارثياً. ولذلك فإن النقد الذاتيَّ من جانب أهل الدين ضروري. لكنْ، هل يمكن إزالة سؤال الحقيقة والحقيقة النهائية، من الوجود؟!

وإذا أراد العلم الطبيعي أن يبقى أميناً لمنهجه وطرائقه؛ فإنّ عليهِ أن ألا يتعدى أفق التجربة، بأحد الاتجاهات؛ مثل الشكّ غير المهتمّ بالمعارف الجديدة، أو الزعم بمعرفة كل شيء. وهناك الحقيقة الإلهية الشاملة التي لا يمكن إدراكها أو تحليلها، كما أنها التي لا يمكن إخضاعُها لاعتبارات العلوم الطبيعية. ثم إنّ حقيقة كالتي نتحدثُ عنها لا يمكنُ إنكارُها مسبقاً. والواقع أن الأذهان المنفتحة تُجاه الحقيقة يمكنها الملاءمة بين الاثنين، أو بين التجربتين: الدينية والطبيعية. وما كانت هناك ضرورةٌ في المنهج تدفع العقل المستقلّ في الأزمنة الحديثة للتعميم، بحيث تنتفي كلُّ إمكانيةٍ لأن يكون هناك مكانٌ للإيمان وآخر للعلم. فإن الإنجيل وإن القرآن، ليس هو نفسه -من حيث التصور- الإله أو مجموعة الآلهة للعالم القديم أو إله الفلسَفة اليونانية.

إلى أي شيءٍ ندعو إذن؟ نحن ندعو في الواقع إلَى نقديةٍ عقلانية؛ لكننا بالفعل ضدّ العقلانية الأيديولوجية. والمفهوم من الأيديولوجية في هذا السياق نظامٌ من الأفكار والمفاهيم والقناعات ووجوه الفهم والدوافع والأعراف، وكلُّ ذلك يتكون ويلتفّ من حول بعض المصالح والاهتمامات؛ بحيث تنتجُ صورةً مشوَّهة عن حقيقة العالم، وتستر الانتهاكات الحقيقية، وتستبدلُ بالحجج العقلانية أخرى عاطفية. فحتى اللاهوت العقلاني في الأصل تميَّز في بعض فترات القرن العشرين بالخضوع للدوغمائيات ونشر ثقافة

التعصُّب.

لقد كان هناك رجالٌ طرحوا أسئلةً كبيرة تتعلّق بالحاضر والمستقبل. وهي أسئلةٌ ينبغي الإجابة عليها من طبيعتها نفسها، أي في ضوء سؤال الألوهية. وتنوعت الأجوبة بالفعل عندما طُرحت أطروحة الألوهية. نعم، لقد تنوعت الأجوبة إلى ما لانهاية. وأحد من الضروري أن أوضح أن الإجابات تنوعت كثيراً لاتصالها بوجود الله -عز وجلَّ- أو عدمه. مَنْ نحن؟ مخلوقاتٌ ضعيفةٌ ما صارت مثلما كانت تؤمِّل دائماً. بيد أنّ الآمال والطموحات ما تزال تعبّر عن ذاتها. لكنْ: لماذا نحن كذلك؟ ما هي هذه الغريزة التي تدفُعنا دائماً إلى التسامي؟ وكيف يمكنُ شرحُها وإيضاحُها؟ إذا كان الله موجوداً فإننا نستطيع الاعتماد والثقة. كما أنّ الآخرين يصبحون بالنسبة لنا شركاء وإخوةً ومستقبلاً.

السؤال الأول إذن: من نحن؟ أما الثاني فهو: من أين أتينا؟ نحن نستطيع العودة إلى الرفاق من الذين يأملون، ويرجون ويبحثون دائماً. وهكذا فإذا كان الله -عزّ وجلّ- موجوداً؛ ففي ذلك ضمانٌ لبقاء البشرية واستمرارها.

ماذا سوف نفعل؟ نستطيع الاتجاه إلى هدفٍ ثم إلى آخر. هذا أمرٌ مقبول. لكن ما أدى في السابق إلى المساعدة في الإحاطة بالهوية الكبرى والأخرى الإنسانية. لكنْ ما هو الهدفُ أو المقصد النهائي إذا صحَّ التعبير؟ إنّ العدمَ يواجُهنا في النهاية إذا سرْنا بهذه الطريقة، أو نكون بذلك ما نزال في مرحلة البدايات. هل يكون المقصد النهائي التقننة الكاملة أو المجتمع الثوري الكامل، وهما الهدفان اللذان يثيران شكوكاً كبيرةً اليومَ أكثر من أي وقتٍ مضى؟ وهل يكون ذلك هو الجواب الوحيد؟ أو أنّ هذا التساؤل غير مسموحٍ به في شتى الأحوال؟ الوجود الإلهي هو الجواب الصحيح على السؤال الكبير، وهو الجواب على غائية الوجود الإنساني والحياة الإنسانية والتاريخ الإنساني.

ولكي نوجز ما نقصد إليه: إنّ الإيمان بالله ليس أمراً من أمور العقل الإنساني وحسْب، بل هو المعنى الواقعي والحي للإنسان، بعقله وجسده، وبعقله وغرائزه، وبموقعه في سياق الحالة الإنسانية والتاريخ الإنساني، وبتعلُّقه بالتقاليد والمرجعيات وأعراف التفكير، وموازين القيم، وبمصالحه والتزاماته الاجتماعية. فالإنسان لا يستطيع التحدث عن ذلك (الشيء). ولذا فالدين أمرٌ فوق طبيعي، لأنه لا برهانَ منطقي على حقيقة الحقيقة، ولا على حقيقة الله. فلا برهان على حقيقة الذات الإلهية هو أولى من الحبّ. فالعلاقة بالله علاقة ثقة. بيد أنّ الإيمان ليس أمراً غير عقلاني. وهناك تأمُّليةٌ في حقيقة الله ناتجة عن التجربة الإنسانية، والدعوة إلى حرية قرار الإنسان. وهكذا فالإيمان بالله يمكن تسويغُهُ في وجه النقد العقلاني. ذلك أنّ جذره مستقرٌّ في التجربة الإنسانية ذاتها، والتي تطرحُ أول الأسئلة وآخرها بشأن سياق إمكانها. فالإيمان ليس قراراً أعمى، خالياً من الواقعية؛ بل هو أمرٌ مؤسَّسٌ في الواقع وعليه، وهو مسوَّغٌ في الحياة العملية. وتأتي أهميتُهُ للحاجات الوجودية وللأوضاع الاجتماعية، وتُصبحُ ظاهرة من خلال حقيقة العالم والإنسان. يتجلّى الإيمان في العلاقة الواقعية بزملائنا البشر، والتي تبدو بمثابة الشرط الضروري لتقبل الله لنا.

وبالطبع فإنّ الإيمانَ بالله يظل دائماً مهدَّداً، ويبقى تحت ضغط الشكوك، ويجبُ أن يظل قابلاً للتحقّق، ويجري الإصرار عليه، ويجري عيشه، وكسْبُهُ في قرارٍ متجدد. وحتى تُجاه الله –سبحانه- ذاته يظِلّ الإنسان في صراعٍ بين الثقة وعدمها، وبين الإيمان وعدمه. لكنْ، خلال كلّ الشكوك، أو بالأحرى من هذا الطريق؛ فإنّ شهود الله يأتي من الأمانة للقرار المتخذ: يصبحُ الأمر تجريباً وبرهاناً على الإيمان بالله(*).

****

الحواشي

*) فيلسوف ومفكر سويسري، جامعة بتوبنغن في ألمانيا.

*) لمزيدٍ من القراءة في الموضوع؛ قارن بـ:

Hans Kiing; Does God Exist? An Answer for Today (Wipf ،Stock، Eugene). Oregon 2006..